

العزّة كمفهوم قرآني



من المفاهيم القرآنية التي اهتم بها الإسلام في القرآن، مفهوم (العزّة) فلقد جعلها □
تعالى لنفسه (فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا) (فاطر/ 10). وقد تحدّث عن هؤلاء الذين
يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين الذي سمّاهم □ سبحانه بـ(المنافقين):
(بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِالْأَنْبِيَاءِ لَهُمْ أَزْوَاجٌ عَلِيمًا * الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ
الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلِيبْتِغُوْنَ عِنْدَهُمْ
الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (النساء/ 138-139). وهكذا نرى أن □
سبحانه وتعالى يتحدّث عن العزّة لذاته المقدّسة، كما يتحدّث عن العزّة لرسوله
وللمؤمنين مما يوحي بأنّ هذا المفهوم أصيلٌ في معنى القيمة في أية ذات حتى الذات
الإلهية التي تحتزن العزّة كلّها من حيث أنها تحتزن القوة كلّها، لأنّ قضية أن تكون عزيزاً
هي قضية أن لا ينفذ الضعف إليك، ذلك لأنّ الذل ينفذ إلى الإنسان من خلال الضعف الذي
يستغلّه القوي ليسقط ذاته أو يحطّ بموقعه. أمّا عندما يكون الوجود كلّها قوّة، لا ضعف
فيه ولو بأصغر نسبة، فإنّ من الطبيعي أن تكون العزّة له. فلقد تحدّث □ عن نفسه بقوله
تعالى: (أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا) (البقرة/ 165)، لأنّ كل قوي يستمد قوته
منه، ومن خلال ذلك فإن كل عزيز يستمدّ عزّته منه، من خلال هذه القوة الموهوبة له.
العزّة قوّة؛ ولهذا رأينا أنّ □ يتحدّث بالتفصيل في هذه المسألة العامّة، في قوله
تعالى: (قُلِ اللَّهُ هُمْ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ

اللَّهِ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ * فَانْقَلِبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لِّمَن
يَمْسَسُهُمْ سُوءٌ وَاتَّبِعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ *
إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ... (آل عمران/ 175-173)،
فالخوف شيطاني والذين يخوِّفون الناس هم أولياء الشيطان الذين لا يملكون بفعل وسوسة
الشيطان أية قاعدة للقوة في أنفسهم، ولذلك يخافون ويخوِّفون، أمّا الإنسان الذي يرتبط
بالله ويخاف من الله وحده، ولا يخاف من أحد، فهو إنسان يمتلأ قلبه وعقله وروحه بالله فلا يمكن
أن يدخل في قلبه أيّ خوف من غير الله، (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ
أَوْلِيَاءَهُ... فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) (آل عمران/
175)، لذلك فإن تكون مؤمناً يعني أن تخاف الله ولا تخاف غيره. الإيمان عزّة: ولقد قلنا في
حديث سابق أن هناك فرقاً بين أن (تخاف) وبين أن (تحذر) فالخوف يسقطك والحذر يفتح
عينيك على ما في الدرب وعلى ما حولك ومن حولك. لذلك أن تكون مؤمناً يساوي أن تكون
عزيزاً، وقد قال الإمام جعفر الصادق (ع) وهو يفسّر هذه الآية: "إنّ الله فوضّ إلى المؤمن
أمره كلاًه، ولم يفوض إليه أن يكون ذليلاً"، فالمؤمن يكون عزيزاً ولا يكون ذليلاً، وقال:
"إنّ المؤمن أعزّ من الجبل، الجبل يستقلّ منه بالمعاول، والمؤمن لا يستقلّ من دينه"،
فليس لك أن تذلل نفسك لفرد أو لجماعة أو لدولة أو لمحور أو لأي شيء، فربما يضغطون على
جسدك، ولكن تبقى لك حرية عقلك، بأن تفكر بحرية، وحرية قلبك بأن ينبض بحرية، حرية قرارك
بأن ينطلق بحرية، وحرية موقفك، فالإنسان ليس جسداً يمكن أن يضغط عليه الآخرون ليسقطوه،
ولكنه عقلٌ وإرادة وقلب وموقف وقرار، فحاذروا أن يكون عقلكم ضعيفاً أمام عقول الآخرين،
وأن يكون قلبكم ساقطاً أمام قلوب الآخرين، وأن تكون مواقفكم وقراراتكم ومواقفكم محكومة
للآخرين، فإنك عندما تكون المؤمن فأنت العزيز. وقد أكمل الإمام الصادق (ع) كلمته بالقول:
"إنّ المؤمن أعزّ من الجبل" انظر إلى الجبل في قوته وصلابته وامتداده في أعماق الأرض وفي
شموخه في الفضاء، كيف هو الصلب القوي الذي تأتي الرياح ولا تهزّ منه شيئاً، ومع ذلك
فالمؤمن أعزّ من الجبل، الجبل يُستقلّ منه - أي يقطع منه بالمعاول فتنزل منه حجارة
هنا وحجارة هناك - بالمعاول والمؤمن لا يستقلّ من دينه" يبقى دينه في عقله وقلبه وحركته
وعلاقاته وموقفه وموقعه، ولن يستطيع الآخرون أن يسقطوا منه شيئاً بل يبقى مع الله عندما
يشعر بالضعف: "اللهمّ" إنّني أسألك إيماناً لا أجل له دون لقائك، أحييني ما أحييتني
عليه، وتوفّني إذا توفّيتني عليه، وابعثني إذا بعثتني عليه". إنّ دين المؤمن يبقى
حيّاً في عقله متجدّداً في كيانه، متحركاً في حياته. وإن دينه ينطلق ليحدّد له قرارته
وقناعاته الثقافية، ومواقفه السياسية والاجتماعية، وعلاقته الإنسانية. درس العزّة: فكونوا
الأعزاء في عقولكم، حتى يكون عقلكم عقلاً عزيزاً لا يسقط، وكونوا الأعزاء في قلوبكم، حتى

تكون قلوبكم عزيزة لا تستعبد، وكونوا الأعزاء في واقعكم حتى يكون واقعكم حياً صلياً لا مجال فيه للضعف، فإذا جاءكم الضعف فحاولوا أن تستعيدوا باٍ حتى تستمدوا القوة منه في كل مواقفكم وفي كل مواقعكم، فهو الذي يعطيكم العزّة والغنى والرفعة ولن يفعل ذلك غيره، كما قال الإمام زين العابدين (ع): "فكم قد رأيت يا إلهي من أُناس طلبوا العزّ من غيرك فذلّوا، وراموا الثروة من سواك فافتقروا، وحاولوا الارتفاع فاتّضعوا". وهكذا جاء في الحديث: "من أراد عزّاً بلا عشيرة، وغنى بلا مال، وهيبة بلا سلطان، فلينتقل من ذلّ معصية إلى عزّ طاعته". المصدر: الندوة/ الكتاب الثاني (سلسلة ندوات الحوار الأسبوعية بدمشق مع العلامة الراحل السيد محمد حسين فضل الله)